التعصب والصور النمطية في المجتمع العراقي

(مدخل لثقافة السلام والصحة النفسية)

(٢-٢)

أ.د. قاسم حسين صالح

انشغل علماء النفس الإجتماعي لعقود من الزمن بدراسة الصور النمطية، وتوصلوا الى أن إنطباعاتنا الأولى عن الآخر تنشأ أو تقوم على أساس توقعاتنا المسبقة. فحيثما ندرك موضوعاً أو حدثاً ما فإننا نقوم داخلياً بتصنيفه من خلال مقارنة المعلومات القادمة الينا بما تخزنه ذاكرتنا عن موضوعات او حوادث سابقة مماثلة، إستقرت فيها على شكل مخططات. ويعني المخطط (نظرة) عن الكيفية التي يعمل بها العالم المادي والإجتماعي، بأن تقسم (الناس، الأشياء، الحوادث، والمواقف) إلى أصناف تأخذ صيغة مكون معرفي تساعدنا على إدراك وتنظيم ومعالجة المعلومات. وبهذا يكون المخطط، معارف ومعتقدات منظمة بخصوص عالمنا الإجتماعي. كما تستعمل المخططات في التعامل مع الأشياء والحوادث الجديدة، بأن نبحث في الذاكرة عن المخطط الأكثر إتساقاً معها، فإننا نستعملها أيضاً مع الناس الذين نقابلهم أو نعيش معهم. فنحن نصنف الافراد على أساس خصائص معينة مثل العرق، الجندر أو الجنس، العمر، أو بعلاقتهم بهويتنا الإجتماعية مثل (نحن مقابل هم). بل إننا نصنفهم أحياناً حتى على أساس المنشأ أو الإنتماء الجغرافي. تأمل ذلك عندما تقابل شخصاً يقول لك أنه من البصرة أو سامراء أو الموصل أو العمارة أو الناصرية، وبذلك فأنت تعالج المعلومة بناء على الصنف الإجتماعي أو الجغرافي أو العرقي،أو أي صفة إخرى تكون دالة على إنتماء الشخص.

والذي لا نعلمه أن الصور النمطية تعمل فينا وتقرر سلوكنا بنشاط تلقائي (اوتوماتيكي). تأمل ذلك عندما تتعرف على شخص يقول لك مثلاً أنه من: شمر مثلاً، أو تكريتي، أو بصري، أو عاني، أو كوفي، أو زبيدي، ... حتى ليصبح الأمر في تصنيفنا الناس على أساس: (المدينة، أو العشيرة، أو الجنس، أو العرق،...) يشبه عملية قيادتنا السيارة. أعني عملية تلقائية أو تعودية، تعمل على مستوى يكون خارج درايتنا به.

والذي لا نعلم به أيضاً، أن الصور النمطية تعمل إرتباطاً أو إقترانات وهمية بين أحداث أو موضوعات غير موجودة في الواقع، تدفعنا الى أن نعمل إستدلالات نبني عليها أحكاماً غير دقيقة. خذ، في سبيل المثال، الترابطات أو الإقترانات الوهمية الآتية: (المصلاوي والبخل، البصراوي وخفة الدم، الكوفي والغدر، الشروكي- العمارتلي بشكل أخص- وقلة الذوق، الدليمي والفطارة...)!

تفحص ذلك في نفسك، وبين العراقيين وسترى كم من الأمور تحسبها(حقائق) فيما هي أوهام ليس إلا، والأمر من ذلك أن هذه الأوهام تتحكم في الكثير من تصرفاتنا ونحن عنها غافلون!

التعصب العرقي

يعد التعصب العرقي أخطر أنواع التعصب وأكثرها أذى. وتعني العرقية (Ethnocentrism)، النزعة لدى الفرد نحو تفضيل الجماعة التي ينتمي اليها على باقي الجماعات الاخرى. ونظرته الى جماعته على أنها مركز كل شيء، والحكم على الآخرين بمقاييسها. وتميل الجماعة العرقية إلى أن تضع نفسها فوق الجماعات الاخرى، وتنظر بإزدراء إلى الغرباء عنها، وتعتقد أن طريقتها في الحياة هي الطريقة الصحيحة.

وثمة حقيقة نفسية خافية عن الناس هي أنهم يحابون جماعتهم االعرقية، وينظرون الى أعضائها بمنظار غاية في المحاباة. إذ يرون أنفسهم بأنهم يمتلكون صفات لطيفة، وسلوكاً مهذباً، وأنهم محبوبون للغاية. والعامل المزاجي في هذه الحقيقة النفسية هي أن الناس ينزعون إالى تصنيف عالمهم الإجتماعي إلى صنفين(نحن) و (هم) وأنه من هذا التقسيم ينشأ التعصب والصراع والتحيز والتمييز.

وما يدعو للدهشة والتأمل أن أفراد الجماعة العرقية ينزعون الى رؤية قدر كبير من الإختلاف (لا التشابه) فيما بينهم كأفراد، فيما يرون قدراً أكبر من التشابه (لا الإختلاف) بين أفراد الجماعة الأخرى. لنأخذ صفة الكرم في سبيل المثال. فعندما يطبقونها على أنفسهم، فإنهم يرون في أعضاء الجماعة التي ينتمون اليها من هو كريم، ونصف كريم، وبخيل، وبخيل جداً. أما إذا طبقوها على أفراد جماعة عرقية أخرى، فهم يرون فيهم جميعاً، بخلاء من دون إستثناء. وقس على ذلك خصائص أخرى، مثل الذكاء، الصدق، والأمانة، والشجاعة.. وما يعاكسها من صفات. (تفحص نفسك وتفحصها بين العراقيين).

وعلينا أن نعترف بحقيقة نفسية أخرى، هي حاجة الإنسان الى هويتين: واحدة للذات وأخرى إجتماعية. الأولى تمثل كينونته ووجوده و(أناه) الخاص به. والثانية تمثل إنتماءه إلى جماعة مرجعية. والإشكالية، أن الهوية الإجتماعية للفرد فيها جانبان: إيجابي يمنحه شعور الإعتزاز بالجماعة التي ينتمي اليها، ويشبع لديه حاجة إنسانية للحصول على صورة إيجابية للذات. وجانب سلبي يتمثل في إعلاء مكانة وإعتبار الجماعة التي ينتمي إاليها، وتفضيلها على الجماعات الأخرى.

والغالب في مجتمعنا العراقي، أن الجماعات المرجعية العرقية تميل إلى أن تهتم أكثر بتغذية الجانب السلبي من هذه الهوية في تنشئة أطفالها، وتعزيزه في الحديث اليومي للراشدين منهم، والتركيز عليه في خطاباتها السياسية والثقافية بأن تعمد إلى تضخيم ما أصابها من حيف أو ظلم من الجماعات الأخرى (بمعنى أنهم طيبون والآخرون أشرار)، أو الإكثار من تمجيد تاريخها والزهو به، لا بصيغة تبيان حقيقة موضوعية وإعتزاز مستحق إنما بصيغة تحمل تصريحاً أو تلميحاً، بأفضليتها على الجماعات الأخرى، وإنها كانت، عبر تاريخها الطويل، منزهة من كل خطأ، وإن كانت إرتكبته فان الآخرين كانوا هم السبب!. وهذا لسان حال الجماعات في كل المجتمعات ظالمة كانت أم مظلومة، حتى لتحسبها سجية في البشر!

أسباب التعصب والصور النمطية وسبل خفضها

تمثل الصور النمطية المكون المعرفي لإتجاه التعصب. ونعيد إلى الذهن ان الصورة النمطية (Stereotype) تعني: تعميمات أو أحكاماً غير موضوعية بخصوص جماعة معينة، لا تستثني من أفرادها أحداً، بالرغم من وجود إختلافات حقيقية فيما بينهم. ويمثل التمييز (Discrimination) المكون السلوكي لإتجاه التعصب. ويعني التمييز فعلاً عدائياً أو سلبياً أو مؤذياً غير مبرر نحو أفراد من جماعة قائم أساساً على عضويتهم في تلك الجماعة، وليس لسبب نعني بها كل أشكال التعليم الرسمي في المدارس والتنشئة الأسرية، والتعلم الإجتماعي بمجالاته المختلفة. وبما أن التعصب سلوك، فإنه يتم تعلمه مثل أي سلوك آخر. فإذا كان الوالدان مثلاً يحملان صورة نمطية سلبية عن جماعات تختلف معهما في الطائفة أو العرق أو الدين، فإن أطفالهما سيحملون الصورة النمطية نفسها، ويتصرفون بنفس الطريقة. وإذا ما وجدوا تعزيزاً لها من أقرانهم فإن تلك الصورة ستتقوى لديهم، ويصعب التعامل معها ومن ثم تعديلها. والملاحظ في المجتمع العراقي أن عقله محشو بصور نمطية لا تحصى، وبشكل عجيب غريب. ففضلاً عن الصور النمطية المتعلقة بالعرق والدين والطائفة والجندر (المرأة والرجل بالمفهومين النفسي والإجتماعي)، فإن فيه صوراً نمطية أخرى قائمة على أساس المدينة. ف (المصلاوي) لدينا عنه صورة نمطية، وكذا: البصراوي،والنجفي، والعاني، والدليمي،... وأهل أربيل لديهم صورة نمطية عن أهل السليمانية، والعكس موجود أيضاً.

والأغرب أنك تجد صوراً نمطية قائمة على أساس المحلة: إبن الفضل، إبن باب الشيخ، إبن الشواكة، كظماوي، معظماوي، (وكلها أحياء أو مناطق سكنية في بغداد).. وما يجعلك تندهش أنهم يعدون أنفسهم مختلفين تماماً بعضهم عن بعض، بالرغم من أنهم يسكنون في محلات متجاورة، ولا تجد تفسيراً لذلك سوى أنهم مصابون بـ (الحول العقلي).

وعليه فان على مناهجنا الدراسية(أعني تحديداً: كتب المطالعة والتربية الوطنية والديمقراطية وحقوق الإنسان...) أن تنتبه لمثل هذه الصور النمطية وتعمل على محوها. وأن تلتقط موضوعات تعتمد الحوار وسيلة لحل النزاعات بين الجماعات والأفراد. ويكون ذلك بتعاون وزارات الثقافة في بغداد وأربيل والسليمانية. فالتربويون يجيدون إختيار مثل هذه الموضوعات، فيما المهتمون بالثقافة(لاسيما المعنيين منهم بثقافة الطفل) يمتلكون الإسلوب المشوق في صياغة مفرداتها، وسعة الخيال في جمالية صورها. وعليها أن تركز في مسألة غاية في الأهمية هي أن تعيد لقيمة (الحياة) إعتبارها بعد أن هوت من مكانتها السامية إلى ماهو عادي بفعل حروب كارثية مخبولة، ثم أجهز عليها الإرهاب ببشاعة الوحوش الضواري. فضلاً عن رخص لحياة العراقي بعيون العسكري الأجنبي((المتحضر جداً!)).

ويبقى على الناس تعزيز وتعميق الإختلاط والإتصال الحميم فيما بينهم. غير أن هذا لن يكون- كما ينبغي- ما لم يشعر الجميع بأنهم متساوون في المكانات، وأن توزع الثروة بينهم بالعدالة، ليحيوا الصلات الإجتماعية القديمة المعروفة عنهم بروح عصرية جديدة، بعد أن أرعبها إنعدام الأمن وأجبر الناس على الجلوس في بيوتهم.

وننبه إلى قضية مهمة جداً تتعلق بالدعوة لتقسيم العراق إلى أقاليم فنقول (بحدود إختصاصنا): إن أحد الأسباب الرئيسية للصراع الذي يفضي إلى التعصب هو الشعور بالحرمان الناجم عن عدم توزيع الثروة بالعدالة، ومنح الإهتمام لجماعة معينة لا تحظى بمثله جماعة أو جماعة أخرى. وما لم تتم معالجة هذه الأمور بدقة ومسؤولية تشيع الطمأنينة لدى كل الجماعات بأصنافها المتنوعة، فإن نوعاً جديداً من التعصب يمكن تسميته بـ(التعصب الإقليمي) سيظهر لا محالة، ويعصف بوحدة المجتمع العراقي في كارثة بلا حدود.

اخيرا...إن نقطة الشروع في تحقيق هذا المشروع، هي أن نعترف جميعاً بأننا مصابون بهذا (الحول الإدراكي)، أعني إنحيازنا إلى جماعتنا ونظرتنا لها بعين الرضا، عين المحب للمحبوب، وإلى الغير بعين تبدي المساوىء، عين الكاره للمكروه، وأن نكون راغبين حقاً في تصحيحه. ففي ذلك أجمل المنافع وأرقى الصفات... أحوجها أن لا يوصف السياسي من العراقيين بأنه (أحول العقل)!

قياس ذكاء الطفل وشخصيته من خلال رسومه

عبد الكريم سليم علي
معهد الفنون الجميلة / الموصل

تعد العالمة (فلورنس كود إنف) Florence Goodenough 1926 صاحبة الفضل في تصميم أول اختبار مقنن لقياس ذكاء الأطفال من رسومهم. وقد استنتجت من أبحاثها، وأبحاث من سبقها أن هناك علاقة وثيقة بين تكوين المفاهيم المستنبطة من رسوم الأطفال، وبين ذكائهم العام. فالرسم بالنسبة للطفل الصغير وسيلة للتعبير، ولغة للتفاهم، أكثر مما هو فن لإظهار الجمال. وعلى ذلك نجد صغار الأطفال يرسمون ما انطبع في أذهانهم من مفاهيم عن الأشياء، لا ما يشاهدونه أمامهم من هذه الأشياء. وحتى لو وضع شيء مألوف أمام الطفل، وطلب منه أن يرسمه، فإنه يبدأ مباشرة في الرسم من دون أن يهتم كثيراً بالنظر إليه، أو التأمل فيه، ثم أن الصورة التي يرسمها لهذا الشيء المألوف أمامه، قد لا تختلف كثيراً عن رسمه للشيء نفسه لو طلب منه أن يرسمه من الذاكرة.

ومع تطور الطفل سناً وعقلاً، فإنه يتعلم رسم الأشياء كما يراها. والانتقال من الطور الأول إلى الطور الثاني انه انتقال تدريجي ومستمر. ومن الحقائق الأخرى التي قدمتها الدراسات في مجال فنون الاطفال، مبالغتهم في إظهار الجوانب التي يعطونها أهمية كبيرة، والمبالغة في تصغير العناصر التي لا يهتمون بها، أو حتى حذفها من الرسم، ويرتبط ذلك ايضاً بحاجات الطفل وانفعالاته المختلفة.

وقد دلت نتائج الدراسات أن هنالك تشابهاً بين رسوم الأطفال بشكل عام، وبين الرسوم البدائية. وإن هناك صلة كبيرة بين رسوم الأطفال وقدرات الذكاء لديهم، وإن الأطفال ضعاف القدرات العقلية يميلون إلى نقل رسوم الآخرين أكثر من اعتمادهم على أنفسهم في التعبير، وإن الطفل الذي يظهر قدرة فائقة في التعبير الفني غالباً ما يظهر قدرة ملحوظة بالذكاء، فضلاً عن وجود تشابه بين رسوم الأطفال المتخلفين عقلياً وبين من يصغرونهم سناً من الأطفال العاديين من ناحية عدم إدراكهم التفاصيل، وعلاقة الأشياء بالنسبة لبعضها البعض (أي التطابق معهم في مستوى العمر العقلي رغم الاختلاف بالعمر الزمني). وتفيد (كود إنف) أن تلك الملاحظات تتجلى على نحو أكبر في رسوم الأطفال لشكل الإنسان، وربما كان ذلك بسبب، أن شكل الإنسان هو أكثر الأشياء ألفة وأهمية بالنسبة للأطفال. وأن الأطفال حتى سن العاشرة تقريباً يميلون إلى رسم الأشخاص أكثر من الموضوعات الأخرى.

لهذه الأسباب، ولأن شكل الإنسان له من الألفة والبساطة ما يمكن صغار الأطفال من محاولة رسمه بتفاصيله بشكل يبرز الفروق الفردية لكل منهم، فقد اختير رسم الإنسان بتفاصيله معيارا لقياس الذكاء. وقد فضل رسم الرجل على المرأة أو الطفل، لأنه غالباً ما يكون لزي الرجل طابع واحد في حين أن ملابس النساء والأطفال كثيرة التنوع والاختلاف. وقد وضعت درجات ومعايير ثابتة لكل جزء من أجزاء رسم الرجل، ومدى إكمال عناصر الرسم أو غيابها (وبحسب عمر الطفل) مثلاً وجود الرأس، والساقين،والذراعين، وطول الجذع،و ظهور الأكتاف، والرقبة، واتصال الذراعين والساقين، ووجود الحواس، والملابس، وتفاصيل أخرى أكثر دقة، يمنح الطفل عند رسمها درجة محددة، لتشكل بالتالي درجته الكلية التي تقارن بالمعيار الجماعي بالنسبة لعمره.

دراسة الشخصية عن طريق الرسم

إن الاعتقاد بأن كل فرد يضفي على تعبيراته الفنية شيئاً من سمات شخصيته وخصائصها، اعتقاد قديم دعمته الأبحاث الحديثة في ميداني علم النفس والفنون الجميلة، وبخاصة دراسات (فرويد Freud) الذي يرى الفن مثل الأحلام دلائل يمكن استخدامها لسبر أغوار النفس البشرية. وقد وجدت (كارين ماكوفر Karen Machover) عندما كانت تقوم بتطبيق اختبار رسم الرجل لقياس ذكاء بعض الأطفال الذين حصلوا على نسب ذكاء متساوية، أنهم يعبرون في رسومهم للرجل عن اتجاهات مختلفة تماماً. فقامت بتطوير الاختبار، بعد أن تأكد لها إمكانية استخدامه بوصفه أداة اسقاطية، حيث جعلته اختباراً لرسم الشخص (أي شخص) بدلاً من رسم الرجل كي يصبح أداة لقياس الشخصية.

وعموماً تستند العديد من أدوات قياس الشخصية من خلال الرسم، إلى إطار نظري مفاده أن الفرد عندما يطلب منه رسم شخص فسوف يعتمد على مصادر ذهنية لحل هذه المشكلة، ومعنى هذا أنه سيختار من معلوماته الذهنية، وقيمه النفسية شعورياً ولا شعورياً. وبما أن النفس هي المنظار الذي نشاهد من خلاله كل امور حياتنا، وبما أننا خلال فترة نمونا نتعلم أن نربط بين أحاسيس وادراكات وانفعالات خاصة، وبين أعضاء معينة في أجسامنا، فإن هذه الارتباطات والأحداث جميعها لابد من أن تجعل الفرد يتأثر بصورة ذاته عند القيام برسم صورة شخص ما. وعليه فرسم الفرد صورة شخص معين ما هي إلا إسقاط لتصوره عن نفسه وجسمه بشكل مباشر أو رمزي مقنع.

ومن الجدير بالذكر أن العديد من الدراسات التي تعتمد الرسم أسلوباً لفهم الشخصية، قد استعانت بمفاهيم نظرية التحليل النفسي، كمفهوم الحتمية السيكولوجية، ومفهوم رمزية الدوافع اللاشعورية، وهذان المفهومان يؤكدان أن لكل سلوك يقوم به الفرد مهما كان مستغرباً، دلالته ودوافعه السيكولوجية الشعورية واللاشعورية.

ويجب أن لا يفهم أن الإسقاط في الرسوم يتم بوضوح وببساطة دائماً، ففي بعض الحالات يقوم المفحوص بإظهار صراعاته النفسية المتمركزة حول عضو من الأعضاء، أو صفة من صفات الشخصية عن طريق التعويض، بل المبالغة في التعويض. فقد نلاحظ في رسوم طفلة ما تعاني الهزال الشديد، تركيزها على رسم جسم أنثوي ضخم مكتنز الشحم، وعلى العكس فقد تقوم طفلة متضايقة من ازدياد وزنها برسم إمراة نحيفة رشيقة حد المبالغة، أما المراهق الذي يشكو نحافة جسمه، وربما شكل جسمه الأنثوي، فكثيراً ما يرسم شخصاً مفتول العضلات تبدو عليه سيماء الرجولة والخشونة. ومثل تلك الإسقاطات تعبر عن رغبات عميقة الجذور.

كما تفيد نتائج الدراسات أن الإسقاطات النفسية على الرسوم تعكس أيضاً تأثر الأفراد بعوامل أخرى كاتجاهاتهم نحو أشخاص مهمين في حياتهم مثل الوالدين، أو متأثرين بتجارب حياتية وبصيغ تعامل أثارت فيهم أحاسيس انفعالية معينة، أو باتجاهاتهم نحو الجنس الآخر أو المجتمع والحياة من ناحية عامة.

وهناك طرق عديدة لتحليل الرسوم، لكنها مع اختلافاتها الفرعية يمكن تلخيصها في ثلاث نقاط مهمة: هي تحليل الرسوم من ناحية الشكل، ثم دراستها دراسة تخطيطية، وبعدها تتم دراسة محتواها في ضوء طروحات نظرية التحليل النفسي.